لم تكن القاهرة لتنتظر «انصافاً» لاستراتيجية الاحتواء التي تعتمدها بثبات. صحيح ان الظروف تغيّرت، كذلك النهج، كما الرجال في القاهرة، لكن الصحيح، أيضاً، وأكثر، ان الطرف العربي الآخر (سوريا) لم يحسن استخدام استراتيجية الاحتواء هذه، بل وظّفها للاساءة الى دور مصر، مستحسناً عزلتها العربية، بل وظّف هذه العزلة لمصلحة اسرائيل.

ولعلّ المنطقة التوفيقية المتوسطة بين الفهمين، المصري والسوري، اسلوب التسوية نفسه: اذا كان صحيحاً وما زال قائماً، فان نمط التسوية المتمثلة في اتفاقيتي كامب ديفيد قد سبق القيادة المصرية الحالية، وان بادرت، أيضاً، الى اتخاذ موقف صريح منه، حين اعلن مبارك، في الخريف الماضي، «ان صيغة كامب ديفيد قد ماتت وانتهت الى الابد». فعلى الرغم من حدة اللهجة لاعلان النوايا المتوجهة بالخطاب الرسمي نحو القاهرة، تتفق النوايا السورية مع نوايا القيادة المصرية حالياً، سواء في نعي هاتين الاتفاقيتين للعالم العربي، أم في اصرار القاهرة على صيغة للحل في اطار مؤتمر دولي يحضره فرقاء النزاع، بما فيهم م.ت.ف. كذلك بادرت القيادة المصرية الى اعلان نواياها، مرة أخرى، حين دعا مبارك، مع الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران، الى تشكيل لجنة تحضيرية تتولّى الاعداد للمؤتمر الدولي.

واذا ما كانت مصر، خلال هذه الفترة، تحت دائرة الاختبار، فقد نجحت القاهرة في الامتحان الذي خاضته وهي مكبّلة بمعاهدة صعبة مع العدو. وفي أكثر من مناسبة، امتنعت القاهرة عن اطلاق العنان لمسيرة تطبيع العلاقات مع تل ـ أبيب. وافلح مبارك، ايضاً، في الاحتفاظ بمكاسب السلام مع العدو، ولم يفرّط بمحاسن التقارب المتواصل مع العرب، حين امتنع عن زيارة اسرائيل بربط ما بين هذه وبين صدور نوايا معلنة عن الحكومة الاسرائيلية تتيح في المجال فرصة التفاؤل بامكان حدوث «تسوية متوازنة».

وتواصل اعلان النوايا المصري مرحلة متقدمة في الالتزام العربي، حين اعترفت القاهرة بالدولة الفلسطينية غداة الاعلان عنها. ولدى اندلاع معركة «التأشيرة» الخاصة بعرفات، وقفت القاهرة موقفاً اثار انتباه عواصم عربية تحفظت، في الماضي، من الاعتراف بأن مصر تسير على الدرب العربي. أكثر من ذلك، باتت القاهرة تمثّل طرفاً أساسياً في مثلثي المبادرة السوفياتية ـ الفرنسية والفرنسية ـ المصرية، وكلاهما يشكّلان منطلق المؤتمر الدولي؛ ثم انها نشطت في ارساء اسس الحوار بين المنظمة وواشنطن، بينما استضافت حواراً آخر بين الاتحاد السوفياتي واسرائيل.

وبالطبع، لم يلق هذا النشاط المصري المستجد صدى ايجابياً، على الاطلاق، في اوساط الادارة الاميركية، بل ان بينها من تحدث، جهاراً، عن ضرورة «اعادة مصر الى مكانها»، أي محاولة منعها من لعب دور عربي تسعى اليه بحماس. وقد يكون لهذا النشاط المصري علاقة بامور يمكن لمسها في واشنطن هذه الايام، منها تزايد الضغوط الاقتصادية والسياسية على مصر؛ فواشنطن لا تريد اعادة جدولة الديون المصرية، بينما القاهرة في وضع مالي حرج للغاية؛ وتسريب المعلومات، مؤخراً، عن قيام مصر بانتاج الاسلحة الكيميائية يدخل، أيضاً، في سياق الضغط على القيادة المصرية؛ وربما تجد القاهرة في هذه الضغوط مبرراً كافياً لفرملة توجهها نحو العرب؛ فلطالما قيل ان مشكلة هذه القيادة انها «عقلانية أكثر ممّا يجب»، والتاريخ ليس معملاً محايداً لـ «المخططات العقلانية»، كما ان تلاحق الضغوط الاميركية قد لا يكون متوائماً مع اسلوبها التدريجي، خصوصاً وانها أتت متزامنة مع تصعيد عمّان لحملتها الدبلوماسية التوفيقية، الداعية الى الانتظار لاتاحة مزيد من الوقت